اليزيدية أو عبدة ابليس

لما بعث الينا المؤرخ المحقق احمد بك تيمور بمقالته النفيسة عن اليزيدية التي نشرناها في مقتطف يناير الماضي قلنا لهُ اننا لسنا على رأيهِ من حيث منشأ هذه الطائفة واننا بحثنا في هذا الموضوع قبلاً فتبيَّن لنا ان معتقد اليزيدية يشبه ان يكون قديمًا اقدم من زمن عدي بن مسافر وسنحيِّن فرصة لاعادة البحث والتحقيق . ولقد صدق من قال و يأتيك بالاخبار من لم تزود . فقد رأينا الآن في الجزء الاخير من اعمال الجمعية الاسيوية الملكية الانكليزية الذي صدر في يوليو الماضي مقالة في اليزيدية للعالم المحقق الفونس منغانا ازاح فيها اللثام عن بعض الاغاليط التي شاعت حديثًا وصدَّقها الكتاب و بنوا احكامهم عليها كما سيجيء فرأينا ان نقتطف منها ما يأتي . قال الكاتب

تنطوي هذه المقالة على شيئين الاول البحث في كتب اليزيدية والثاني احوال اليزيدية كما هم الآن وما كشف من امرهم حديثًا

كتب اليزيدية

(١) كتاب عربي بحروف سريانية ترجمهُ الاستاذ برون ونشرهُ سنة ١٨٩٥ وقد كان ملحقًا لكتاب المستر بري الذي موضوعهُ سنة اشهر في دير سرياني . وهو اصلاً من كتب الاستاذ روبرتسن سمث ويقال ان ناسخهُ رجل من اهالي الموصل وهو يتضمن كتاب الجلوة وخبرين آخرين أدخل اكثرهما بعد ذلك في كتاب اليزيدية الثاني المسمَّى بالكتاب الاسود

(٢) كتاب سرياني نشرهُ المسيو شابو في المجلة الاسيوية (Journal Asiatique) سنة ١٨٩٦ يوافق الخبر الثاني الذي ذكرهُ المستر برون كأنهُ مترجم عنهُ

(٣) كتاب سرياني عن اليزيدية وجد في دير النورش وطبع في رومية سنة ١٩٠٠ يقال ان كاتبهُ كاهن سرياني اسمهُ اسحق ساكن اليزيدية لكي يتعرف امورهم واكثرهُ موضوع على طريقة السؤال والجواب ويبحث عن اعمال الله ومقره وخلقه لادم وحواء وعجائب الاله يزيد واولياء اليزيدية والسنة الجديدة والزواج والموت والدفن والحج الى مقام الشيخ عدي وملوك اليزيدية

(٤) كتاب عربي نشرهُ الدكتور عيسى يوسف في شيكاغو في مجلة اللغات السامية في يناير ١٩٠٩ وهو يحوي كتاب الجلوة ومصحف رش و يشوهما وصف مذهب لعادات اليزيدية من قلم رجل اسمهُ ارميا

وعندي ان الذين نشروا هذه الكتب نشروها وهم معتقدون صحتها لكنها موضوعة حديثاً كلها والمرجح ان الذي وضعها شماس اسمهُ ارميا شماس توفي منذ عشر سنوات وهو شيخ طاعن في السن . وكان المستر بري يعرفهُ جيداً وقال انهُ كان راهباً سريانياً في دير هرمزد وهو شيخ يعرفهُ كل الانكليز الذين زاروا الموصل . وقد كان جهينة اخبار فاذا جاء خبر من الاستانة فالشماس ارميا اول من يعرف بهِ ويرويهِ مدعياً ان زوجتهُ نسيبة لاحد الكتبة في دار التلغراف واذا حدث حادث في بيت القاضي او المفتي فهو اول من يعلم بهِ ويشيعهُ . وتراهُ يتاجر بالخيل والكتب القديمة الفارسية والعربية والسريانية . اراني بعض الكتب فوجدت بينها كتاباً ادّعى انهُ قديم وحقيقتهُ تنقض ذلك لكنهُ لم يخفِ عليَّ امرهُ قائلاً ان حبهُ للمال معها اشتد لا يحملهُ على غشي . حقًّا ان مقياس الصدق والاستقامة عند هؤلاء الناس افسد مما يُظن

وهذا الكلام مقول على كتب اليزيدية كلها وهو مؤيد بادلة من الكتب نفسها فانهُ ما من كتاب منها وُجد قبل عهد هذا الشماس فالنسخة السريانية التي وجدت في دير القوش لا يتجاوز تاريخها سنة ١٨٦٥ كما ثبت لي بعد البحث المدقق . ونسخة المستر بري العربية المعروفة بكتاب الجلوة والكتاب الاسود كاتبها رجل مسمّى نفسهُ عبد العزيز وقد كتبها سنة ١٨٨٩ للشماس ارميا . وانا اعرف عبد العزيز هذا وقد سيم بعد ذلك كاهناً لليعاقبة في الموصل واسمهُ الآن القس عزيز

والكتاب الرابع الذي نشرهُ الدكتور عيسى يوسف في شيكاغو باميركا احدث من الذي سبقهُ وقد قال الدكتور عيسى يوسف ان صديقهُ داود الصائغ اهداهُ اليهِ تذكاراً لصداقتهِ قبل غادر الموصل . وعليهِ فاقدم كتاب من كتب اليزيدية لا يتجاوز تاريخهُ سنة ١٨٦٥ والمرجح ان هذه الكتب كلها من اوضاع الشماس ارميا

ان كل الذين كتبوا عن اليزيدية اجمعوا على انهم ممنوعون دينًا من تعلّم القراءة والكتابة . وهذا الامر اي منعهم من تعلم القراءة والكتابة قد تحققتهُ انا نفسي ولا يجوز تعلّم القراءة والكتابة الاّ لبيت واحد منهم فان كان عندهم كتب دينية

فهي في هذا البيت وان كانت هذه الكتب في قرية قصر عز الدين فهذا البيت هناك ولكنهُ ليس هناك . واذا كانت هذه الكتب موجودة عند اليزيدية حقيقة وجب ان تقرأ في مجتمعاتهم السنوية ولكن كثيرين من المسيحيين والمسلمين حضروا هذه الاجتماعات وقالوا انهم لم يسمعوا شيئاً قرئ فيها . ثم ان القرى التي يسكنها اليزيدية يسكنها ايضاً المسيحيون والمسلمون او يسكنون على مقربة منها فكيف تيسر لليزيدية ان يكتموا امر كتبهم ١٤٠٠ سنة ولا يعلم جيرانهم بها

هذا من حيث الادلة الخارجة على ان هذه الكتب موضوعة حديثاً . والادلة الداخلية على انها كذلك كثيرة وهي تدل على ان واضعها هو الشماس ارميا نفسهُ . من ذلك أن عبارات الكتاب العربي تدل على ان كاتبها اعتاد الكتابة بالسريانية كقولهِ « لكي يفهم و يعلم شعبهِ » فان اللام في لشعبهِ لازمة هنا في السريانية وممنوعة في العربية . وكقولهِ « يجب الصدقة عند انقس الموتى » فكلمة عند لا ترد هنا في العربية ولكنها ترد كذلك في السريانية . وكقولهِ « خلقت وولدت لاجلها » . فتعدية ولدت باللام اصطلاح سرياني . وكذلك اللام في قولهِ « تجذب امة واحدة وراءك وتلقب لاسمي » . وتدل ايضاً على انهُ مسيحي ألِف التعابير الدينية المسيحية كقولهِ « رئيس هذا العالم » وكقولهِ « العلمانيين » . وكأن غرضهُ من كتابهِ ان يعرّف الاجانب ما هي اليزيدية لا ان يعلّم اليزيدية كيف يمارسون شعائر دينهم

ثم ان الشماس ارميا الحق بالكتب التي نسبها الى اليزيدية اشياء من عقائد عبدة ابليس وعاداتهم وجرى في كتابتها مجرى السريان ايضاً فالحق الفعل بضمير الجمع مع ذكر فاعلهِ بعدهُ كما يفعل السريان كقولهِ في كتاب الجلوة « التي يسمونها الخارجين شرور » . وقولهِ « لانكم لستم تدرون ما يفعلون الاجانب » وعرّف الصفة بال التعريف مع تنكير الموصوف كقولهِ « واحرك امور اللازمة » . وكقولهِ « دعي اسمهُ اوريق الاصغر »

وفي الكتاب الاسود امور حديثة جداً لا يمتد تاريخها الى ابعد من اواسط القرن التاسع عشر فقد ذكر فيهِ بلاداً قال انها روسية وهي لم تدخل في حوزة روسيا الاّ في الربع الاول من القرن التاسع عشر

وليس المراد ان كل ما جاء في هذه الكتب غير صحيح كلاّ بل ان كثيراً مما فيها ينطبق على عقائد اليزيدية وشعائرهم الدينية التي يمارسونها وانما مرادنا ان الشماس ارميا الفها وجمع فيها عقائد اليزيدية التي يتناقلونها خلفاً عن سلف لانهُ عاشرهم زمناً طويلاً

احوال اليزيدية

هذا من حيث الكتب التي يقال انها كتب اليزيدية اما اليزيدية انفسهم فمن الغريب ان ذكرهم لم يرد في كتب السريان مع ان مؤرخي السريان والساطرة واليعاقبة كانوا بينهم دائماً . ففي الكتاب الحادي عشر من تفسير ثيودورس بن كيواني كلام عن كل الفرق الوثنية والمسيحية واللادرية فعدم ذكره لليزيدية يدل على انهُ حسبهم مع فرقة اخرى . وفي الفصل التاسع من كتاب يوحنا بن بشكابه اخبار عن كل المعبودات الوثنية من شرقية وغربية ولكنهُ لم يشر بكلمة الى اليزيدية مع انهم جيرانهُ

وتسميتهم يزيدية نسبة الى يزيد لا ترد كذلك الا في كلام المسلمين المتكلمين بالعربية اما المسيحيون الذين يتكلمون بالسريانية الدارجة في القرى التي قرب الموصل فيسمونهم ديصانية اودسانية وهم اتباع ابن ديصان . وابن ديصان هذا منجم من اهل الرها من رجال القرن الثاني المسيحي . ولعلهم سموا كذلك لعبادتهم الشمس والقمر والنجوم . وليس لدينا ما يدل دلالة قاطعة على سبب تسميتهم يزيدية فقد ظن البعض انهم سموا كذلك نسبة الى يزيد او يزد مدينة في ايران وطن الفرس والمزدكية او نسبة الى يزدان بالفارسية مبدإ الخير و يقابلهُ اهرمن مبدأ الشر وعليهِ فاصلهم من ايران و يؤيد ذلك كون لغتهم الكردية وهي من اللسان المادي الفارسي ولكن ما ذكرهُ الشهرستاني في كتاب الملل والنحل يناقض ذلك فقد قال « اليزيدية اصحاب يزيد بن انيسة الذي قال (كذا) انهُ يتولى الحكمة الاولى قبل الازارقة وتبرأ ممن بعدهم الا الاباضية فانهُ يتولاهم وزعم ان الله تعالى سيبعث رسولاً من العجم وينزل عليهِ كتاباً قد كتب في السماء وينزل عليهِ جملة واحدة و يترك شريعة المصطفى محمد صلى الله عليهِ وسلم ويكون على ملة الصابئة المذكورة في القرآن وليست هي الصابئة الموجودة بحران وواسط . وتولى يزيد من شهد للمصطفى عليهِ السلام من اهل الكتاب بالنبوة وان لم يدخل في دينهِ وقال ان اصحاب الحدود من موافقيهِ وغيرهم كفار مشركون وكل ذنب صغير او كبير فهو شرك » انتهى

ولا كبير شأن لكلام الشهرستاني ولو اشار بكلامهِ هذا الى يزيدية عصرنا لان الكتّاب امثالهُ ردّوا كثيراً من الفرق الدينية الى الاسلام والاسلام بريء منها لاسيما وانهُ قال ان زعيم اليزيدية خرج من العجم وينقضهُ قول ثيودورس بن الكيواني حيث قال ما ترجمتهُ

« كان لاتباع هذا المذهب زعيم اسمهُ بابا عائلة الكليلايا من غوكي وكان لهذا الباباعبد

اسمهُ بطاي بلغ من الكمال انهُ أبقى قلفاً من العبودية واخباً بين اليهود . ومن ثمَّ لاذ بتلاميذ مانى فجمع بعض خطبهم وبعض قطع من سحرهم . وفي عهد الملك فيروز صدر امر عالٍ بتحريم عبادة الاصنام ومناهضة كهنتها وتأييد دين المجوس . فلما رأى بطاي ان مذهبهُ بات مقضيًّا عليهِ تملَّق المجوس وصار من الصابئة . وغيَّر اسمهُ وسمَّى نفسهُ يزداني ومعناهُ « رسول الآلهة » فاقتبس من اليهود تحريم لحم الخنزير ومن اسفار موسى اسم الرب الاله ومن المسيحيين رسم الصليب فوضعهُ على كتفهِ الايسر وهذا اتباعهُ حذوهُ وهم يقولون ان الصليب سرّ الجد بين ابي العظمة والارض السفلى »

ويحتل اليزيدية ديكاً من المعدن يسمى طاووساً يحترمونهُ احتراماً دينيًّا قصد ايهام العامة وقت جمع العشور منهم . وقد كثر البحث في سبب تسميتهِ طاووساً وعندي ان ما ذهب اليهِ الدكتور لدزبرسكي اقرب الآراء الى الصحة فقد قال ان كلمة طاووس محرفة من كلمة تموز . وقد قال الدكتور يوسف ان الميم لا تقلب في الكردية واواً وهذا غير صحيح بل هناك كلمات كثيرة قلبت فيها الميم واواً مثل ناو لنام (اسم) وجاو لجام (عين) و نيو لنيم (نصف) وكوان لكمان (قوس) الخ

ويظهر لنا ان ديانة اليزيدية مزيج من اليهودية والمسيحية والوثنية والاسلام او هي بقية من المزدكية مازجها شيء من تعاليم اللادريين الذين قاموا في القرن الثاني المسيحي

فقد جاء في بعض التواريخ انهُ كان في عهد بني ساسان اناس يعبدون الهاً يسمونهُ تموز وقد اثبت ذلك يوحنا بن بنكايه في القرن الثامن في الفصل التاسع من كتابهِ وابان تيودوروس بن كيواني في القرن السادس ان عبادة تموز كانت شائعة في وادي دجلة وفي ما يحيط بجبل سنجار حتى نصيبين . وكان اسم تموز شائعاً عند المسيحيين في زمن بني ساسان مثال ذلك ان بطريرك سلوقية في القرن الرابع كان يسمى تموز ورأيت رجلاً مسيحيًّا في كردستان اسمهُ مرقس بن تموز وآخر من قرية قرتسيس اسمهُ تموز يعدا . وهاك ما قالهُ المسيو بونيون في كتابهِ عن الكتابات السامية المطبوع بباريس سنة ١٩٠٧

« يقال ان تموز هذا كان راعيًا وعشق امرأة مشهورة بجمالها وغاوية بهِ وهي من جزيرة قبرس واسمها بالي واسم ابيها هركليس وامها ارنيس وبعلها هفايستوس فغرَّت مع تموز حبيبها الى جبال لبنان . وهي التي دعيت ايضاً باسم الزهرة (فينوس) فان ابلها سماها بهذا الاسم بسبب تهتكها . وبعد فرارها بكاها ابوها سبعة ايام في شهر طيبة وهو شهر يناير . وكانا يخبزان الخبز على الارض ثم يأكلانهِ . وهذا الخبز هو ما يحييهِ الوثنيون حتى اليوم

كملك بيت طيبة . فتبعها قريبها هفايستوس الى لبنان فلقيهُ تموز وقتلهُ ولكن تموز مات ايضاً اذ قتلهُ خنزير بري ثم ماتت بلتي جزعاً عليهِ . ولما علم ابوها بموتها اقام عليها الحداد في شهر تموز وكذلك فعل ابو تموز . وهذا البكاء هو الذي اقتبستهُ اليهود مقلدين بهِ الوثنيين ونضيف الى ذلك ان هركليس ايا بلي عمل لها صورة زينها بالذهب الكثير واكره جميع قومهِ على عبادتها لانهُ كان رئيس البلاد . واخيراً اكره حامور ملك بلاد العرب على عمل صورة للزهرة ثم ارسلها اليهِ ليعبدها . فاخذها حامور واعطاها لخادم لهُ اسمهُ مونا ليسهر عليها فسرقت منهُ فخاف خوفاً شديداً وقال ليدو ان صورة المرأة غضبت لامر ما فطارت واستقرت في الزهرة . وعند الفجر نهض حامور من سريرهِ ونصب خيمة ومسح كاهناً للزهرة واقام الاعياد والافراح العظيمة . وهذا هو العيد الذي يقيمهُ سكان بلاد العرب كل سنة . اما الخادم فخشي ان لا يصدق سيدهُ ان الصورة صعدت الى الزهرة فهرب الى دجلة واقام في غابة سنديان هناك »

ولماذا يرمز الى تموز هذا بصورة طائر . ان الذين تقيبوا خرائب اشور وجدوا فيها تماثيل كثيرة لمعبودات في شكل طائر وفي ذلك يقول السر هنري لايرد

ان الطيور المقدسة من خصائص ديانة البابليين وقد تكون من خصائص ديانة الاشوريين ايضاً وكانت عندهم بمثابة ارواح ذات سلطة على اعمال الناس مثل الفردهر في مذهب زروستر وكان لها في قصر ملك بابل صور من الذهب على ما قالهُ فيلوستراتس

ووصلت عبادة الطيور من اشور الى الاسرائيليين فقد جاء في سفر تثنية الاشتراع (٤ : ٦ و ١٧) « لئلاَّ تفسدوا وتعملوا لانفسكم تمثالاً منحوتاً شبه طير ما ذي جناح مما يطير في السماء » . افلا يحتمل ان تكون صورة الطاووس من بقايا الديانة البابلية

ولنأتِ الآن الى القسم الثالث من موضوعنا وهو ادعاء الاب انستاس ماري الكرملي انهُ اكتشف في جبل سنجار النسخة الاصلية من كتب اليزيدية (كما جاء في الانثروبوس سنة ١٩١١ صفحة ١ — ٣٩)

فقد قال الشماس ارميا ان كتب اليزيدية كتبت بالعربية واما النسخة التي اكتشفها الاب انستاس فمكتوبة بالكردية . ولم يدّع احد قبل الآن انهُ كُتب بالكردية شيءٌ غير بعض الاغاني ومرادنا ان نبين الوجوه التي تلقي الشك في صحة هذا الاكتشاف

فاولاً نجد في ما نقلهُ الاب انستاس من هذه النسخة اشياء يظهر انها مقتبسة من

مصادر اوربية كسؤاله صاحب هذه الحكاية : « ما الذي دفعك الى اتخاذ المسيحية » فاجاب بقوله « كنت خادماً للزعيم الديني في عشيرتي سبع سنوات وامينا على كتبه » . أفيعقل ان المنصب الذي كان اليزيدية شديدي الحرص على كتمانه يعطى لخادم قد يكون عندي في صباح يوم وعند عدوي في مساء ؟ وقد جرت هذه الحادثة سنة ١٨٩٨ . وعلى الوجه الثامن نجد هذه السطور : « وفي اواخر يونيو سنة ١٩٠٤ (وكان صاحب الرواية قد مات) خرجت من الموصل قاصداً رومية بطريق الصحراء فمررت بسنجار ودير الزور وحلب وبيروت ولما بلغت سنجار توجهت لزيارة الشيخ وهو شيطان رجيم ورجوت من امين الكتب ان يأتي لزيارتي مساء ووعدته بهدية »

فهذه الرواية لا تساعدنا لنجاوب عن مسألتين جوهريتين (١) كيف استطاع الاب انستاس معرفة امين الكتب بسهولة وهو لم يره قبلاً فضلاً عن ان منصبه محجب بحجب الخفاء والكتمان (٢) هل لليزيدية امينان للكتب واحد في بوزي قرية الرجل الذي قبل المسيحية على يد الاب انستاس وثان في جبل سنجار وهو يبعد مسيرة ثلاثة ايام عنها . فهذان الامران متناقضان كل التناقض . ولكن من هو هذا الزعيم الديني اليزيدي الذي كان يقطن قرية بوزي والذي كان صاحب الرواية حافظاً لكتبه . أكان شيخاً ام قوالاً ام كوتشاكاً ام سيداً شريفاً . وهذا الامر على جانب عظيم من الاهمية اذ لا يكاد يصدق ان رجلاً خاملاً من اليزيدية يكون له امين كتب . والمعروف ان زعيم اليزيدية الديني والدنيوي له سلطان الحياة والموت على اتباعه ويقوم بالوراثة من عائلة علي بك (الذي قتله اغا مسلم اسمه صفر منذ ثلاث سنوات فخلفه ابنه) ويقيم بقرية باعذري من قضاء شيخان التابع للموصل

ويقول لنا الاب انستاس ان السعد خدمه اذ وجد هذه الكتب على يد يزيدي تنصر بارشاد رؤيا الهية رآها . وقد جاء في مبتدإ هذه الرؤيا قوله : « كنت يوماً مستغرقاً في نوم على اثر الجهاد الهائل الذي اقمته في السهرة ضد نفسي واذا بي أرى بستاناً بديعاً انشقلت اشجاره الاثمار وفيه من الازهار كل صنف ولون . فاردت تامل جمال الطبيعة على مهل فنشأت شجرة غناء قديمة العهد امتلأت اغصانها عصافير صغاراً تغرد وكأنها تتنافس على جائزة السبق في اجادة الالحان »

وليس من غرضنا البحث في الوحي الالهي الذي يهبطه روح القدس على خدامه ولكن

لا يسعنا الاّ الدهش من براعة هذا الكردي في تنميق عباراته وحسن ديباجته مما يوقظ فينا الشبهة ويحملنا على الظن ان لا يد الروحاني يداً في هذه الديباجة المنمقة

وفي اثناء سياحتي في تركيا من ٧ يناير الى ١٧ مارس سنة ١٩١٣ مررت بقرب سنجار وسألت كثيرين من اصدقائي يزيدية سنجار عن هذا الاكتشاف فلم يجيبوا جواباً على مسائلي ولا فهموها . ولما بلغت ماردين فاتحت المستر اندروس بهذا الامر وبما يخالج صدري من الريب والشكوك . وهو مرسل اميركي قضى اربعين سنة يساعد هؤلاء اليزيدية عبدة الشيطان ويتوسط لهم مع السفارة الانكليزية في الاستانة لتخفيف ما اصابهم من الحيف على ايدي ولاة الموصل حتى لقد وزع عليهم وعلى المسيحيين ما يزيد على ٤٠٠٠ ليرة عثمانية بين سنة ١٩٠٨ و ١٩١٠ لازالة بعض شقائهم . فرجل هذه حالته لا بدّ ان ينظر اليزيدية اليه بعض الاحترام وقد وجدت ان اكتشاف الاب انستاس الغريب ادهشهُ كما ادهشني فتجشم مشقة سفر طويل من ٥ ابريل الى ١٧ مايو سنة ١٩١٢ لتحقيق هذه الحكاية فزار اولاً بقرية باعذري واستخبر زعيم اليزيدية الروحي والزمني عنها ثم استأنف السير الى سنجار وسأل خودار الياس شيخ هذه البلاد الصغيرة فلم يقابَل الاّ بالدهشة في كل مكان وباجوبة سلبية فعاد من سفره على غير جدوى

(٢) ان الكتابين اللذين اكتشفهما الاب انستاس ماري سنة ١٩٠٤ ونشرهما سنة ١٩١١ في مجلة « انثروبوس » هما بعينهما « كتاب الرؤيا » و « الكتاب الاسود » اللذان زعم ان يزيدياً ترجمهما من الكردية الى العربية . ولنا على ذلك اعتراضان : الاول انهُ لم يقل لنا ما نفع اليزيدية من ترجمتهما في حين انهم كلهم يتكلمون الكردية . وزد على هذا انهُ قيل في « الكتاب الاسود » ان الله كلّم اليزيدية بالكردية فلم يستبدلوا هذه اللغة بلغة مضطهديهم . والثاني يجب علينا تهنئة هذا العلاّمة اليزيدي الذي استطاع ان يترجم بسهولة الى العربية نسخة يحار فيها ابرع علماء اللغات السامية

ثم ان حروف هذين الكتابين ليست باقل غرابة من لغتهما . فهي ليست هيروغليفية ولا اشورية ولا سريانية ولا ارامية ولا عبرانية ولا كوفية ولا مغولية ولا صابئية ولا قبرصية ولا عربية ولا نبرية . فمن اين جاءت ؟ فان المؤلف الاول لهذين الكتابين لم يشأ اطلاع احد على ما فيهما . وما دامت النقوش على الحجر وصحف البردي والرقوق لا تدلنا على ماهية هذه الكتابة واصلها افيعقل ان كتاباً اكتشف حديثاً في جبل سنجار يميط اللثام عن وجودها

قوّالة اليزيدية

ملك طاووس

نساء اليزيدية

جماعة من اليزيدية يدخنون

المقتطف أكتوبر ١٩١٦

امام الصفحة ٣٢٨

اما جبل سنجار هذا فمقر اسقفية نسطورية تابعة لكرسي بيت عربايا وقد مر عليه زمن طويل وهو مقر كرسي لليعقوبية تحت مفريان تغريت . والمرجح ان اسقفاً نسطورياً اقام هناك حتى ايام غزوات المغول . وقد حاول القائلون بأن للمسيح طبيعة واحدة بمساعدة حلفائهم اتباع حنانيا من القرن السابع الى التاسع ان يحلوا محل النسطوريين فنازعوا بذلك فوزاً وقتياً في عهد جبرائيل الدرسبدي ولكن النسطوريين عادوا فاستردوا سيادتهم الاولى . واتفق في القرن الرابع عشر ان خانات التتر اعملوا السيف في المسيحيين سكان هذا الجبل . وكان كثيرون من الوثنيين اهل القرى المجاورة له قد لجأوا اليه هرباً من غارات هؤلاء الغزاة . وجميع الآثار القديمة التي وجدت فيه هي اما اشورية واما مسيحية ولا شيء — على ما اعلم — يستدل منه ان اليزيدية سكنوه قبل غزو التتر له وعليه لا يكاد نزولهم فيه يكون قبل القرن الخامس عشر . وليس في تاريخ الجبل ولا في اثر من الآثار الموجودة ما يدل على انهم سكنوا الجبل قبل ذلك التاريخ

واهم اعمال اليزيدية من سكان القرى الذهب والسلب وليس لهم مقر ديني يرجعون اليه ولا ما يشبهه بل ترى القوالين يتنابونهم من القرى التي الى الشمال الشرقي من الموصل . فما شأن الكتب في قرى متوغلة في البدوية مثل هذه وفي قوم لا ينتمون الى طبقة من الطبقات الممتازة . ولم يجهل زعيم اليزيدية الديني والزمني وهو يقيم بقصره في بعاذري قرب الموصل ان لديانته كتباً سرية . وان كان عالماً بهذه الكتب فكيف يتركها في عهدة لصوص يقطنون جبل سنجار . ولم لا يزين بها غرفة فيزيد بذلك نفوذه بين قومه

(٣) ان الكتابين اللذين اكتشفهما الاب انستاس حديثاً هما الكتابان اللذان اكتشفهما الشماس ارميا قبل ذلك بثلاثين سنة كما تقدم القول . فاي الرجلين نصدق . ان الاب انستاس ختم كتابه « الاسود » بهذه العبارة « وتحول السادس هواه » . ولكن ارميا وضع بعد هذه العبارة ست صفحات بالكتابة العربية الدقيقة خاتمة لكتابه . فمن منهما انتهك حرمة هذه الآثار اليزيدية بالعبث فيها . ثم ان نسخة انستاس اكثر اعتداداً في تفاصيلها وادق تعبيراً في مواضع قد يجبو منها سمع الاديب . وهل من يشرح لنا كيف ان نسخة قديمة سرية أطيلت هنا وقصرت هناك وبدلت هنالك كما يظهر جلياً من مقابلة نسخة انستاس بنسخة الدكتور يوسف . فهل حذفت النبذة الآتية مثلاً من الكتاب الاسود في نسخة انستاس لانها وقر في آذان رجال الدين وهي :

« وكان بعد خلق حواء وجميع الحيوانات ان آدم وحواء اختصما في هل يتسلسل النوع الانساني منهُ او منها اذ كلٌّ منهما اراد ان يكون مختصًّا بذلك دون الآخر . وكان منشأ هذا الخصام رؤيتهما ان الذكر والانثى في الحيوانات يشتركان معًا في انتاج النسل . وبعد جدال طويل اتفقا على الامر الآتي وهو ان يلقي كلٌّ منهما بذرتهُ في اناء و يسدهُ و يختمهُ بخاتمهِ وينتظر تسعة اشهر . وبعد انقضاء هذا الاجل فتحا الاناءين فوجدا في اناء آدم ولدين ذكرًا وانثى ومنهما تسلسل اليزيدية قومنا . اما اناء حواء فلم يوجد فيهِ شيءٌ سوى دود بالٍ تتصاعد منهُ ريح كريهة وخلق الله حلمين لآدم يرضع منهما ولديهِ . وهذا هو السبب في كون الرجل لهُ ثندوتان »

وقد حذف من نسخة انستاس حكايات كثيرة غريبة نذكر منها واحدة

« واعلم انهُ اتى على الارض طوفان غير طوفان نوح . ذلك ان طائفتنا اليزيدية متناسلة من نسمي وهو رجل كريم وملك السلام ونحن نسميهِ ملك ميران . اما الطوائف والقبائل الاخرى فمشتقة من حام الذي سخر بابيهِ . واستقرت الفلك في قرية اسمها عين سفني تبعد عن الموصل خمسة فراسخ وكان سبب الطوفان الاول سخرية الذين كانوا خارج الفلك اي اليهود والمسيحيين والمسلمين وغيرهم من نسل آدم وحواء . وكان بعد ذلك بزمان ان الله ارسل العقارب على معاوية فلدغتهُ حتى انتفخ وجههُ من السم فاشار عليهِ الاطباء ان يتزوج لئلا يموت فرضي بذلك فجاؤوهُ بعجوز عمرها ثمانون سنة لكيلا يلد لهُ ولد . فعرف معاوية امرأتهُ وفي صباح اليوم التالي قعدت صبية بنت ٢٥ سنة بقوة الاله العظيم »

ومما يقضي على كتابي ارميا وانستاس غرابة تبديل الحكايات المتماثلة . فارميا مثلاً يضع فصلاً عن استئناف الله لعمل الخلق بعد حكاية الخلق . ولكن الكاتب الذي نسخ نسخة انستاس لحظ ان هذا الترتيب ليس طبيعيًّا معقولاً فوضع استئناف عمل الخلق قبل حكاية الخلق . وهاك اول الفصل :

« لا يجوز لاحد منا ان يتلفظ باسمهِ او بما يشبههُ كشيطان وحبل وشر ونهر وغيرها من الالفاظ التي لها مثل صوتها . هذه كلها محظورة علينا احترامًا لهُ . فالحمص مثلاً محرم علينا اكلهُ لان صوت اسمهِ كصوت اسم نبيتنا خضر . والنون (السمك) محرم اكرامًا ليونان النبي . وهكذا الغزال لان الغزلان خراف احد انبيائنا »

اما فيما يخص البقعة المباركة التي وجدت فيها هذه الكتب فقد تناقض المكتشفان كل التناقض فارميا يقول ان الكتاب الاسود وجد في سمال او في قرية قربها وكتاب الرؤيا

في بيت الملا حيدر . اما الاب انستاس فيقول ان كتابيه وجدا كلاهما في جبل سنجار وان السياح لاحد بالوصول الى هذه الكتب المقدسة تعقبهُ عواقب وخيمة . قال :

« وقد اكد لنا الزعيم الديني نفسهُ غير مرة انهُ اذا سرقت الكتب وجب ان تخرب حالاً الناحية التي يوجد الصندوق فيها . واذا بقي الصندوق مكانهُ بعد سرقة الكتب التي يحتويها وجب حالاً حرقهُ وتخريب المكان المقدس الذي كان فيهِ . واذا نسخت الصفحات الاصلية او نشرت بطريقة من الطرق على رؤوس الملا وجب القاء كل ما يعثر عليهِ منها في النار المقدسة حالاً . فهم يحرقونها لتكذيب كل ما يشاع عن محتوياتها »

ونختم الآن هذه المقالة بالملاحظة الآتية :

ثبت ان اللغة العربية لم تحل محل السريانية وغيرها من لغات وادي دجلة قبل القرن التاسع بدليل ان الخليفة الوليد امر سنة ٧١٤ مسيحية في دمشق عاصمة الخلفاء الامويين بان تكتب كتابات الحكومة الرسمية بالعربية بعد ما كانت تكتب باليونانية . ولما كانت الكتب المشار اليها تحتوي على كثير من العبارات العربية فلا يمكن ردّها الى القرن العاشر للميلاد . افيعقل ان يقوم في ذلك القرن رجل مجهول ويكتب بهذه الحروف العربية التي توجعنا الى العصور السابقة للتاريخ في حين ان جميع الحروف الشرقية والغربية كانت معينة معروفة . او ليس من البعيد غير المحتمل ان توضع قواعد النحو والتهجئة الصحيحة دفعةً واحدة للغة عامية خسيسة

رب قائل يقول انك جرت كثيراً على هذه الكتب اليزيدية . فاجيب انها ليست في اعتقادي سوى كتب مزورة . فان كنت مخطئاً في هذا الاعتقاد ففخري اني مهدت السبيل بهذه المناقشة لزيادة التثبت من صحتها ان كانت صحيحة

وبينا كانت هذه المقالة مهيأة للطبع اطّلعت على ما كتبهُ الاستاذ بترمن جامعة فينا عن الاكتشافات الاخيرة في كتب اليزيدية فرأيتهُ قد عمل عملاً يستحق المدح وهو انهُ نشر الاصل الكردي مقابل نسخة عربية جديدة تختلف كل الاختلاف عن النسخ المعروفة قبلها . وقد حلّت رموز الجزء الكردي بواسطة الحروف المجائية التي نشرها الاب انستاس نفسهُ في العدد المشار اليهِ من مجلة انثروبوس . وكنت قد شرعت في مثل هذا منذ ثلاث سنوات ولكني عدت فعدلت عن اتمام هذا البحث لكثرة ما قام من الاعتراضات على صحة الكتب . ورجاؤنا ان هذا العالم المستشرق يخدم اليزيدية بازالة جميع الشكوك التي تبطت عزائم الباحثين عن كتبهم »